

المسرح في خدمة المجتمع المصري

للاستاذ سلامه موسى

من المسلم به أن المسرح ملهى ، فيجب أن يحتوى على المفريات التي يلهو بها الجمهور ويتسلى وينجذب بها اليه . وإذا قصدنا من المسرح إلى الخدمة والفائدة الاجتماعيتين فاننا لا نستطيع أن ننكر هذه الحقيقة وهي أنه ملهى . لأننا إذا أنكرناها عاد المسرح وكأنه مدرسة لا يحضرها الجمهور إلا مكلفا . وعندئذ يضيع كل مجهود في الخدمة المبتغاة . والدرامة تجسم المواقف وتثير في النفس نعمة العواطف ، وهي لذلك أمثل الوسائل الفنية للكشف عن الأدواء وللإشارة إلى الدواء .

ولم تخل الدراما منذ نشأتها من التوجيه الاجتماعى سواء أكان هذا بالعرض أم بالنقد أم بالإيماء أم بالتصريح . وهذا طبعى ، إذ هي تعالج حادثة من حوادث الاجتماع البشرى فى الماضى أو الحاضر ، والمؤلف يحض عرضه لهذه الحادثة يؤثر فى الجمهور المتفرج حتى ولو لم يقصد إلى هذا التأثير . والمسرح لهذا السبب يعد مدرسة سواء أأراد القيمون عليه أم لم يريدوا . بل هو من هذه الناحية يعد مدرسة كبيرة التأثير ، لأنه لا يلقى درسا إلا عن سبيل إثارة العواطف . ثم هو لتجسيم الحادثة يجعل درسه قدوة بمن نرى عليه من أشخاص يسلكون سلوكا معينا له ليحاوئه فى نفوسنا إن شأنا وإلا خيرا . والقدوة أنفع فى النفس من التعليم .

ولكن المسرح الأوروبى قد ابحه منذ نحو خمسين أو ستين سنة وجهة اجتماعية تمتاز بتعيين الغاية التى يقصد اليها المؤلف وبالتحديد المشكلة التى يعالجها . فقد كان المؤلف قبل ذلك يعالج الموضوع كأنه ما كان وغايته التسلية فقط ، وكانت الآراء الاجتماعية أو الأخلاقية ترد جزافا أو كما يقتضى تطور الحادثة على لسان أشخاص الدراما . ولكن المؤلف الجديد جعل للدرامة الحديثة محورا اجتماعيا هو إحدى المشكلات القائمة . فالجمهور المتفرج يرى حادثة تنكشف عن مشكلة اجتماعية يسير بها المؤلف إلى مازقها أو ذروتها ويفصل فى ثناياها ما يلابس المجتمع من عيوب تتطلب العلاج . فالجمهور يخرج وقد استنار فى هذه المشكلة ، لأنه رآها ممثلة مجسمة فى أشخاص الدراما لا تختلف عن الواقع الذى يحدث خارج المسرح . وهو لهذه الاستنارة يجد ما يحفز ويستفز إلى إصلاح هذه العيوب . وعندئذ يصير المسرح قوة إصلاحية كبيرة .

وأعظم المؤلفين الذين دفعوا المسرح الأوروبى إلى خدمة المجتمع هو هنريك إبسن (١٨٢٨ - ١٩٠٦) وهو مؤلف نرويجى وضع طائفة من الدرامات التى يعالج كل منها مشكلة اجتماعية ، مثل استغلال المرأة أو الزواج أو غير ذلك. وشاعت طريقته فصار عليها مؤلفون كثيرون يتفاوتون فى المهارة والدقة . ورأينا فى انجلترا برنارد شو وجانزورنى . وفى فرنسا بريدو وهرفيو وباتاي . وفى ألمانيا سودرمان . فان هؤلاء المؤلفين تناولوا مشكلات اجتماعية تتصل بالزواج والجريمة ، والفقر والحب ، والمرض والتشريع فعابجلوها . فكانوا بهذه المثابة مصلحين اجتماعيين كما كانوا مؤلفين مسرحيين . وصار الجمهور المتفرج يستير فى شئونه الاجتماعية ومشكلاته الاقتصادية والأخلاقية مع الامتناع الفنى واللهو المسلى .

وما أجدرنا فى مصر بأن نجعل المسرح يؤدي هذه الخدمة للجمهور . فان مشكلاتنا الكثيرة التى تتصل بالزواج والطلاق ، والفقر ، والعادات السيئة فى المآتم والأعراس ، وأمانة التاجر وجد المزارع ، وأعباء الديون ومشكلة التعليم ، وتربية الشخصية ، وغير ذلك قد نستطيع أن ننبه الجمهور إليها بكتابة المقال أو بتأليف الكتاب . ولكن هذا التنبيه لن تكون له قوة الإيحاء والبعث على الإصلاح كما يكون للمسرح . لأن المقال أو الكتاب ينير بالتعليم والتعريف . ولكن للمسرح ينير بالقوة وتجسيم الوقائع . والفرق عظيم .

ولهذا السبب نعتقد أن من المفيد لجميع المشتغلين بالتمثيل أو المتصلين به أقل اتصال فى مصر أن يدرسوا هذا التوجيه الاجتماعى للمسرح . وخاصة هنريك إبسن وبرنارد شو . فإنا يمكننا أن نختار منهما كثيرا من الدرامات نبين فى كل منها المشكلة الاجتماعية التى يعرض لها أحدهما والطريقة التى عابجلها بها والعبرة التى نستطيع أن نخرج بها منها للمجتمع المصرى الذى يختلف فى كثير من أحواله عن المجتمع الأوروبى . والمؤلف والمخرج والممثل كل هؤلاء ينتفعون بدراسة الدرامات الأوربية وبالتطورات التى مرت بها حتى انتهت إلى تمثيل المشكلات الاجتماعية . ويجب أن نتخى عن أذهاننا ذلك الرأى القائل بأن الممثل لا يحتاج إلى كل هذه المعارف أو إلى الإحاطة بالثقافة المسرحية ، لأنه يؤدي دوره على المسرح ومعه الملحن وليس عليه سوى إجادة الإلقاء . فان للثقافة أثر التغيير فى الشخصية . والممثل العظيم يجب أن يكون مثقفا ذا دراية تامة بجميع التيارات التى أثرت فى المسرح ووجهته قديما وحديثا . وهو يحسن التمثيل بمقدار ماله من حماسة للإصلاح الاجتماعى ومن دراية بالمواقف فى الحياة العامة . ولا يكون هذا إلا بالتنقيف . فكل من الممثل والمثلة فى مصر يجب أن يعرف تاريخ الدراما على وجه الإيجاز ، ولكن عليه أن يعرف على وجه التفصيل والإسهاب الحركات المسرحية الحديثة التى جعلت المسرح جزءا حيا له أثره فى الإصلاح الاجتماعى .

ولسنا بذلك نقضى النظر عن قيمة الفن في التمثيل والمهارة في الإخراج ، فإن لها قيمتهما العظيمة . بل إن هذه القيمة تزداد إذا كان الممثل مثقفا يدرك البواعث ويبصر بالتأنيخ المبتغاة .

وقد قضى المسرح المصرى إلى الآن نحو خمسين سنة وهو يتدرج في غير نظام . فيتقدم أحيانا ويتعثر أحيانا أخرى ، بل لقد مرت به فترات ارتد فيها إلى الوراء . وأخيرا أخذت الحكومة بيده ونفخته بمعونات مالية كان لها أحسن الأثر في ترقيته . ولكن الدراما الاجتماعية المصرية لم تظهر فيه حتى الآن .

والخطوة الأولى في إيجاد هذه الدراما أى في توجيه المسرح للإصلاح الاجتماعى هي — كما قلنا — درس أولئك المؤلفين — وخاصة هنريك أبسن وبرنارد شو حتى نوجد الحق الثقافى لهذه الموضوعات بين الممثلين وجميع المتصلين بالمسرح . ثم تلى ذلك الخطوة الثانية وهي تكليف الكتاب المصريين المعروفين تأليف درامات تبحث المشكلات الاجتماعية المصرية . وطريقة المباراة التي اتبعت إلى الآن لم تكن الطريقة المثلى . لأن الكتاب الكبار يرفضون . وصغار الكتاب بل المبتدئون يتراحمون لأنهم يجهلون الموضوع . وخير من ذلك أن تعهد الوزارة إلى نحو سبعة أو ثمانية من الكتاب المعروفين بالتأليف ، وتؤدى لكل منهم مكافأة معتدلة ، ولا تحمل المكافأة متوقفة على قبول الدراما . بل كل ما يطلب من المؤلف أن يؤلف . أما النجاح والقبول فتجب المغامرة بهما في سبيل الحصول ولو على دراما واحدة مفيدة ناجحة .

ونظن أننا نحتاج إلى المبادرة والتشجيع في هذا الموضوع . ذلك لأن السينما تسيطر ببطى واسعة . وصحيح إن المسرح سيتفجع من هذه الخطى . ولكن يجب ألا نخضع بذلك لأن التقدم السينمائى يجذب الجمهور بألوان من الإغراء لا يمكن المسرح بهدونه أن يزاحه فيها . فإذا استمرت الحال على ذلك طويلا في مصر فإن المسرح سيتخلف ويكون الجمهور قد اعتاد الكمال الفنى السينمائى فيسأم الدراما المثلة . بل هو الآن إلى حد ما كذلك يقبل على السينما ولا يجب من الدرامات إلا تلك التي يمكن أن تؤسم بأنها "إرجافية" كأنها تحاكي الإرجاف السينمائى . وأحيانا تقف حائرين إزاء الخلية التي نمانها متسائلين : هل فاتنا أوان الرق المسرحى ؟

ولكن هذه الحيرة ليس لها ما يبررها . ويجب أن نهض بالمسرح مهما تكن الصعوبات . وكل ما نحتاج إليه أن نوجد طبقة هوت التمثيل ودرسته وأحاطت بثقافته وأدركت تياراته الحديثة . ثم نكل إلى الأدباء البارزين تأليف درامات تدرس المشكلات المصرية . وبعد ذلك نستغل الرق الفنى في جذب الجمهور .